بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الواحد الأحد، الفرد الصمد، واجب الوجود الذي لا يحمد على مكروه سواه، الذي تقصده النفوس في الليل والنهار، وتفزع إليه القلوب في الملمات، وتدعوه في السراء والضراء، الملجأ الوحيد لهذه البشرية المعذبة، والملاذ للفقير والغني، السقيم والسليم، الضعيف والقوي.

الله ربنا، خالق كل شيء، أرحم الراحمين الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكلأنا بعطفه، ويشملنا برحمته، ويحرسنا بعنايته. وبعد:

* في مساء يوم الأربعاء ١٩ من سبتمبر ١٩٧٩. كانت القرية الكبيرة تنام هادئة مطمئنة في أحضان البحر الصغير، وفجأة وبلا مقدمات أو إنذار أو تمهيد، تجاوبت أصداء مآذن مساجدها بصوت النعي، يعلن قدوم

* جثمان المهندس/ أحمد الزيني من دولة العراق الشقيق، وكان ما كان، عاشت القرية في حزن عميق من صدمة المفاجأة وللسيرة الحسنة للشاب الراحل، ولف الحزن الشامل أفراد الأسرة الصغيرة، وهزها حادث الموت هزاً عنيفا، كأنه الزلزال المدمر، والبركان الثائر، وكان حال أسرتنا [١] حال أسرة السيد أحمد عبد الجواد بعد أن فقدت «فهمي» ابنها الأكبر في ثلاثية نجيب محفوظ، ولعل هذا الوصف التفصيلي، الذي وصفه رائد القصة العربية لأسرة أحمد عبد الجواد بعد موت فهمي يشبه حال أسرتنا. أما حال

(١) بين القصرين ص٥٧٤-٥٧٨ ، وأيضا قصر الشوق ص١٥ وما بعدها.

الأم «فقل ما شئت في هلع يبلغ بها حد الجنون»[١].

وبشيء من التفصيل يشبه حال أم رشدي عاكف في خان الخليلي بعد أن مات ابنها الأثير في ريعان شبابه بمرض السل.[٢]

أو كما صور أستاذنا المغفور له الدكتور زكي نجيب محمود (١٩٩٣م) موقف جدته بعد فقد ابنها الأول «جزعت على موت ابنها جزعا لم أشهد له مثيلا في كل من رأيت من الأمهات اللائي ثكلن أبنائهن»[٣].

* كان حادث الموت المروع، والمفاجأة المذهلة التي وقع بها، وقصر المسافة الزمنية بين سفر الشاب – بحيويته الفياضة، وشبابه الغض، وابتسامته الواسعة وطموحه الوثاب، وعزيمته الحديدية – ثم عودته محمولا على الأعناق جثة هامدة راقدة في صندوق أسود، حافزا على التفكير والتأمل، والتدبر في الحياة والموت وإعادة النظر في قضية الموت وحتميته، ومصير الفرد والمجتمع والعالم أجمع، ودور الإنسان في هذه الحياة، والتأمل في المصير المحتوم الذي ينتظر البشرية في خاتمة المطاف، مهما طال مشوارها على درب الحياة فهو لا يعدو في نهاية الأمر إلا لحد كئيب مظلم أغبر في بطون الفيافي الجرداء.

وعلاوة على ذلك كان هذا الموضوع يشغل ذهني منذ تفتح عقلي على الحياة وأطللت بعمق على بعض أسرارها وألغازها، والتساؤل الملح يلف عقلي دائما من أين أتينا؟ وإلى أين نذهب؟

ما معنى الموت؟ وما سره؟ وكيف نحاسب في قبورنا؟ وما معنى كل هذه المراسيم التي تجري لنا؟ وإلى من يتكلم هذا الملقن؟ للأحياء أم للأموات؟

وهل نسمع القرآن المقروء بجانب رؤوسنا الموسدة التراب؟

وهل نعلم ما يجري في الدنيا ونحن في العالم الآخر؟

---

(١) قيم من التراث ص٣٣٦.
(٢) خان الخليلي ص٢٣٩ وما بعدها.
(٣) شروق من الغروب ص١١٨.

وإلى أين نذهب بعد الموت؟

وما المصير الذي ينتظر الإنسان؟ وما الحكمة الخافية وراء كل ذلك؟ [١] وألحت القضية على عقليبشدة وعنف.

ثم جاء موت الشاب المحبوب، بمثابة حافز وأي حافز على القراءة في هذا الموضوع والكتابة فيه.

* وكنت من ضمن ما قرأته لأستاذنا المغفور له الدكتور/ عثمان أمين (١٩٠٨-١٩٧٨م) كتاب الفلسفة الرواقية، وفهمت أنه جمع مادته العلمية في أثناء إعداده لدرجة الدكتوراه في فرنسا[٢].

ومن ثم تفتقت الخطة في ذهني للكتابة في موضوع الموت، ووافق هذا الموقف قيامي بالتسجيل لدرجة الدكتوراه بآداب القاهرة عام ١٩٨٠م – وتفرغي الكامل لجمع المادة العلمية لموضوعها، وفي الوقت نفسه عملت بجد وإصرار، وبلا كلل ولا تعب وبعزيمة تفل الحديد، على جمع المادة العلمية لهذا الكتاب «مشكلة الموت بين الفلسفة والدين». وكلما صادفتني فقرة أو عبارة أو حكمة تدور حول مشكلة الموت رصدتها، وكلما قرأت بيتا من الشعر، أو قصيدة حزينة تتكلم عن حتمية الموت بخاصة أو تجربة الموت بعامة سجلتها، وظل هذا دأبي طوال سنوات الدراسة والتحصيل حتى أعددت رسالة الدكتوراه.

بعد ذلك عدت إلى أوراقي أتصفح مادتها، واستكمل عناصرها، وأحلل قضاياها وأضيف إليها قدر طاقتي، وأدقق في كتب الشعراء والحكماء والفلاسفة ورجال الدين الإسلامي والمسيحي، لعلي أجد إجابة شافية عافية كافية للأسئلة الحائرة التي تطوف بعقلي دوما وأحاول أن أرفع الأستار المسدلة قدر إمكان الطاقة الإنسانية عن الكثير من الأسرار والألغاز التي تهز كيان الإنسان أينما وجد وحيثما كان.

---

(١) راجع تحليل كتاب الروح لابن القيم ، في كتاب الدكتور محمد الزيني : ابن القيم وآراؤه الكلامية ص٦٧.
(٢) الفلسفة الرواقية ، من التصدير ، ط ١٩٤٥م.

* ونقطة أخرى متصلة بهذا الموضوع، استقرأتها من تجارب الحياة، ورحلة العمر القصيرة،وهي، لماذا كان الشعب المصري أكثر الشعوب احتفالاً بالموت؟

أعني لماذا حدث الموت يروع أفراد الشعب ترويعاً مخيفاً؟

ولماذا يؤثر في شعور الأفراد، ووجدانهم تأثيراً بالغاً؟

ولماذا نرى البكاء والنحيب والعويل والصراخ والإغماء سمة من السمات الملازمة لأي أسرة يرحل عائلها، أو أي فرد منـها.

ولعل أبرز مثال على ذلك، وأصدق شاهد على ما أقول، جنازة المغفور له الزعيم الراحل جمال عبد الناصر (١٩٧٠)، لقد خرج الشعب المصري كافة، أطفاله وصبيانه رجاله ونساؤه، كهوله وشيوخه، والجميع يبكي بحرارة، ويصرخ في تشنج لأنه فقد أباه الحقيقي الذي يعوله ويحميه من سهام الأيام.

وفي مقابل ذلك، أو عكس هذه الصورة، شاهدت أكثر من شعب عربي، يستقبل فجيعة الموت كأمر ضروري من ضروريات الحياة، علينا أن نتقبله، وأنه حق من حقوق الله وسنة من سنن الكون، فيأتي الموت ثم يمضي ولا يخلف وراءه من الحزن إلا القليل ويأتي النسيان فيبلع ما تبقى من الأحزان. كم رأيت من شباب غض في دول العالم العربي يتخطفه الموت، وتفترسه أنيابه ثم يكون رد الفعل هادئاً مقبولاً.

*** ما تفسير ذلك؟**

اجتهد فأقول، إن التاريخ الممتد في الماضي السحيق للشعب المصري ذي التراث العريق له أثره الخطير في حياته المعاصرة، فاحتفال أجداده من المصريين القدماء بقدوم الموت، وقيامهم على تحنيط جثثهم، والاحتفاظ بها سليمة مع وضع الأدوات التي كان يستعملها الميت معه في قبره، وزخرفة القبور بالنقوش والرسوم التي تعمل على طرد الأرواح الشريرة، وبناء المعابد الجنائزية، والتماثيل الفارعة من أحجار الجرانيت والديوريت والبازلت، علاوة على تشييد الأهرام التي تمثل أكبر مقابر في تاريخ الشعوب قاطبة لكي يدفن فيها الفرعون الحاكم وأسرته، ثم الاحتفالات المتكررة بذكرى الميت ومنها ذكرى الأربعين – إذ اعتقد المصري أن الروح سوف تعود ثانية إلى الميت –أضف

إلى ذلك الذكرى السنوية الأولى والثانية وهكذا، هذه نقطة.[١]

والثانية، إن المهنة الرئيسية للشعب المصري خلال تاريخه الطويل، كانت وما زالت الاشتغال بالزراعة، ومن أخص خصائصها، الاستقرار، والثبات، والتمسك بالمكان، والتشبث به لدرجة العبادة والحب العميق، والتعاطف، والتماسك الاجتماعي، وتعاون أفراد المجتمع فيما بينهم، ومساعدة كل منهم الآخر و تكفيك « نظرة سريعة إلى منجزات الحضارة المصرية لترى أن كثيراً جداً من تلك المنجزات هو من ذوات الجسامة والضخامة مما يستحيل على فرد واحد، أو عدد قليل من الأفراد أن يؤديه بل لابد من جماعات كبيرة تتعاون على إنجازه كالأهرامات والمسلات وأعمدة الهياكل وإقامة الجسور أيام الفيضان وغير ذلك»[٢]. «نعم كان المصري لا يعرف الحياة إلا تعاونا مع الآخرين من أبناء أسرته وقريته وأمته والتزامل في العمل»[٣]. والاجتماع لنصرة المظلوم وأخذ الحق له هذه المعاني ينتج عنها المودة والرحمة والترابط، انظر إلى بيوت القرية المصرية تجدها متماسكة مترابطة كأنها بنيان واحد يشد بعضه بعضا، وأفرادها كل متماسك كأنهم قلب واحد ورأي واحد.

الثالثة، الطابع العاطفي الذي اعتقد أنه سمة من سمات هذا الشعب البسيط الطيب الباسم الضاحك، صاحب القلب النقي، والنكتة التلقائية، والضحكة المجلجلة «وملعون أبو الدنيا». كما كان يردد «المعلم نونو» دائما وهو يفتح باب حانوته في خان الخليلي[٤].

إنه شعب ضاحك باك وهي سمة، أقرب ما تكون للنزعة العاطفية منها للنزعة العقلية، انظر إلى أفراحنا تجد فيها الإسراف في الفرح، والمبالغة في الزينات، والبذخ في شراء الأطعمة والأثاث والذهب، والسهر طوال الليل في الاستماع إلى الموسيقى والغناء، وفي الوقت نفسه تأمل ما يجري في حالة المآتم تجد الإسراف نفسه في الحزن والبكاء والعويل، والاحتفال بذكرى الميت المتتالية.

---

(١) د. أحمد فخري : مصر الفرعونية ، الأنجلو المصرية ، ١٩٩١ ص١١٦.

(٢) د. زكي نجيب محمود : قيم من التراث ص٢١٠.

(٣) المصدر السابق ص٢١١.

(٤) خان الخليلي ص٣٠ وما بعدها ، ومن الجدير بالذكر أن أبطال نجيب محفوظ في رواياته تصور جل السمات التي تتميز بها الشخصية المصرية.

وبالجملة فهذه التصرفات كلها أميل إلى الجانب العاطفي، إذ إنها تعتمد على أحاسيس القلب، وعمق الشعور وشدة الانفعالات، دون أن تستند إلى قوة الحجة أو الدليل المنطقي، أو برهان العقل.

* يبقى ملحظ أخير لعل له دلالة يستنبطها القارئ اللبيب بوضوح، فقد جمعت المادة العلمية لهذا الكتاب بمصر المحروسة طوافا بمكتباتها الغنية الوفيرة بالمصادر والمراجع، وكتبت فصوله في أثناء عملي بمعهد المعلمين بمدينة صور بسلطنة عمان الزاهرة (١٩٨٢-١٩٨٦م).

وأخط سطور هذه المقدمة بكلية التربية بمدينة حجة باليمن.

ثم يتاح لهذا الكتاب- بعد سجن طويل في أدراج مكتبي- فرصة الخروج والظهور على يد رجال يحبون العلم ويعملون على نشر كل ما يفيد الإنسان أينما كان في مدينة حجة العامرة، باليمن.

وآمل أن أكون قد قدمت بعض الإجابات عن الكثير من الأسئلة التي تدور في عقولنا جميعا. ونجحت في شرح أبعاد قضية الموت، وقدمت زاداً للقارئ المتحير يستطيع أن يتأمل فيه، ويناقشه، ويطمئن إليه أو يشك فيه، يقبله أو يرفضه، ويتفهم جوانب طبيعة الموت، وحكمته كفعل من أفعال الإرادة الإلهية حتى لو غابت هذه الحكمة عن أعيننا.

ثم توقفت طويلاً أمام أسباب خوف الإنسان من الموت محاولاً سبر أغوارها، وكشف أسرارها، والغوص في أعماق الإنسان، والاقتراب من باطنه لسماع هواجسه ووساوسه ومخاوفه وقلقه.

وفي النهاية، استعرضت العوامل التي تساعدنا على تقبل فكرة الموت، و هي تتلخص في قبول الإرادة الإلهية التي قررت أن يكون الموت: قانون من القوانين الأساسية للوجود.

ولله الأمر من قبل ومن بعد. إنه نعم المولى ونعم النصير.

محمد الزيني
مدينة حجة – اليمن
١٥ / مارس/ ١٩٩٦م

* * *